نظرات في سورة يوسف (17)

وقطّعن أيديهنّ

طارق مصطفى حميدة

مركز نون للدراسات القرآنية

قال تعالى: (فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأً وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم).

سمى القرآن كلام النسوة في حق امرأة العزيز مكراً، والمكر هو التدبير السيء، وذلك إما لأنهن أردن الانتقاص من شخصها والتقليل من منزلتها، أو لأن في كلامهن رغبة في التعرف على ذاك الذي شغف سيدته حباً، وبالتالي يكنّ قد تكلمن بحضور طرف سينقل الرسالة إلى امرأة العزيز، وحتى في غياب ذاك الطرف فما أسرع مقالة السوء إلى أهلها.

والتعبير بالفاء يفيد سرعة امرأة العزيز في الرد على مكرهن بمكر أكبر، حيث أرسلت إليهن، فحضرن، ما يعزز كونها أرفع منزلة منهن، وأعتدت لهن متكأً، وآتت كل واحدة منهن سكيناً، وأمرته بالخروج عليهن.

والتعبير بالخروج دون الدخول، لاحتمال أن يكنّ في فناء القصر، أو في صالة فيه، فيخرج من غرفة أو من أحد الأبواب، وبالنسبة لامرأة العزيز يحقق هذا الوضع مزيداً من المفاجأة على الزائرات.

وهذا ما تحقق بالفعل فما أن رأينه حتى أكبرنه، والإكبار فيه معنى شدة الإعجاب به والتعظيم لشأنه إلى حد يشبه التقديسيؤكد ذلك نفي البشرية عنه والتأكيد على كونه ملكاً كريماً، وكما قلت سابقاً فالأمر ليس مجرد جمال الشكل بل معه كمال الرجولة، والجاذبية الشخصية (الكاريزما)، لرجل يُعدُّ ليكون نبياً وقائداً بارزاً في بلد كبير.

لقد كان الرجل من القادمين إلى مكة ينظر في وجه الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، فيقول ما هذا الوجه بوجه كذاب، ولذلك أضيف هنا بالنسبة ليوسف عليه السلام جانب الجمال المعنوي من صفاء النفس وطهارتها، ويكفي أن أول ما صدر عنهن من الكلام كان اسم الله تعالى والملائكة الكرام، بمعنى أن وجه يوسف عليه السلام يُذّكر أول ما يذكر، بالله تعالى وبالملائكة.

وقد لاحظنا كيف أن الذين تعاملوا مع يوسف أجمعوا على أنه من المحسنين، فقد قال صاحباه في السجن: (إنا نراك من المحسنين)، كما قال إخوته له بعدما أخذ أخاه: (يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا

نراك من المحسنين)، والمرأة قد تكون أقدر من الرجال في معرفة الرجال من حيث الخلق والاستقامة، وسرعان ما تنكشف حقيقة الرجل العفيف من غيره، عند أول لقاء له بالنساء، فتفضحه وقفته أو خطوات قدميه، حتى من قبل صفحات وجهه، ونظرات عينيه.

لقد درج أغلب الذين فسروا السورة الكريمة على القول بأن النسوة من هول المفاجأة وعظمة الدهشة وافتتانهن بالصورة، جرّحن أيديهن بدلاً من تقشير أو تقطيع الفاكهة التي قُدمت لهن، لكن بعض أهل العلم المعاصرين اعترضوا على هذا التفسير، ومستندهم في ذلك، أن حالة الاندهاش تؤدي إلى التوقف عن العمل، والواحد منا لو كان يأكل ورأى على جهاز التلفاز مشهداً لافتاً فإنه يوقف حركة يده بين فمه والصحون، بل وربما أوقف المضغ أو بطّأ سرعته، فكيف تستمر النسوة في التقطيع عند لحظة الدهشة؟ ثم إن الطعام لم يُذكر في الآية، وذُكر أن المرأة ناولت كل واحدة منهن سكيناً، ما يعني أن السكين مقصودة لذاتها، وحتى المتكأ فيبدو أنه ليس لإكرام الزائرات، سيما والجو ليس جو إكرام، والتعبير بـِ (وأعتدت لهم متكأً) له علاقة بالعدة والعتاد، ويوحي بأنها حالة حرب، يضاف إلى ذلك أن تقطيع الأيدي كان منهن جميعاً، ولو كان هناك فاكهة يأكلنها، لما كن جميعهن وفي نفس اللحظة يستعملن السكاكين، وبالتالي كان يُفترض جرح البعض وليس الكل.

ثم إن صيغة التضعيف للفعل (وقطّعن) تعطي إيحاءً بالشدة والتعمد، ونحن نقول: حمل الولد الكأس فكسرها، مع أنها ربما سقطت منه ولم يتعمد كسرها، وهذا بخلاف ما لو قلنا إن الولد كسّر زجاج النافذة، فحينئذ لا نشك بأنه تعمد فعل ذلك.

والأستاذ بسام جرار من أبرز المناقشين للفكرة السائدة؛ وله في ذلك مقال ضمّنه كتابه: (نظرات في كتاب الله الحكيم)، وهو موجود كذلك، على صفحة مركز نون بعنوان: (وقطّعن أيديهن)، وبناء على معطيات عدة فصّلها الشيخ جرار، بعضها مما ورد أعلاه، فإنه يرجح أن يكون تجريح النسوة أيديهن، نوعاً من الاعتذار لامرأة العزيز بجرح أنفسهن حسياً لما سببنه لها من جرح معنوي، وكررن الفعل تعاطفاً معها ومشاركة لها.

وكاتب هذه السطور، أيضاً يتفق مع الشيخ الفاضل في رفض فكرة تفسير التقطيع بحالة الدهشة، ولا يعتقد أن حالة هستيريا جماعية أدت بهن إلى هذا الصنيع، فإن كلامهن مع شدة إكبارهن له لم يخرج عن حالة الاتزان والعقل. لكن هناك احتمالاً آخر في تفسير تجريح الأيدي، وهو أن يكون هذا الفعل شارة حبّ في تلك الثقافة، يقوم بها المحب ليشعر بها من يحبه عن عواطفه تجاهه، وقد يكون ذلك خاصاً في الرسائل التي تبعثها النساء، أو عاماً في رسائل النساء والرجال.

وحيث أيقنت امرأة العزيز أن النسوة قد أُخذن لما شاهدن يوسف عليه السلام، بعدما رأت ما فعلن بأيديهن، وسمعت فيه مقالتهن، فقد ثأرت لنفسها منهن، واعتقدت أنه لا حجة لهن في لومها، حيث وقعت عاذلاتها فيما

لُمنها فيه، فلا ضير أن لا تنفي التهمة بل أن تؤكدها بتبجح، سيماً وأنها لا تحسب حساباً لزوجها ولا لغيره، فقالت: (فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم)، والاستعصام، كما يقول الزمخشري: بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد؛ كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها.

وتابعت بنبرة فوقية، مستقوية بموقف النسوة، اللاتي لم تعد تشك أنهن معها يؤازرنها قلباً وقالباً: (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنّ وليكوناً من الصاغرين)، فهي سيدة وهو عندها عبد، وليس أمامه بحسب منطقها إلا الاستجابة لأوامرها، وإلا فلينتظر السجن والصغار.

وقد جاء التهديد بالسجن بالجملة الفعلية، لأنها تريده إلى جانبها ولا تريد دوام بعده عنها، أملاً منها أن يتراجع، واستخدم البناء للمجهول لأنها ليست هي التي تسجن بل هي تشير وغيرها ينفذ، والأمر الآخر أنها تريد أن يتركز ذهن يوسف على عملية السجن لا على القائم بها، حتى يكون التهديد أبلغ وأفعل.

واستخدمت مع الصَّغار الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار، لأنه ليس أشد على النفوس الأبية من التهديد بالصغار، كما أنه قد أهانها وأذل كبرياءها، وهز مكانتها أمام زوجها وأهلها وفي قطاعات عدة من المجتمع، فهي تريد أن تثأر لكرامتها المجروحة. لكنها مع ذلك غير واثقة من إمكانية جعله من الصاغرين فأتت بنون التوكيد الخفيفة، فيما أتت بالنون الثقيلة وهي تهدد بالسجن لكونها واثقة من قدرتها عليه.